منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين -الشيخ مبارك الميلي أنموذجا-

The method of historical writing for Algerian historians - Sheikh Mubarak Al-Mili as a model -

أحمد زاوي* [1]، رشيد مياد[2]

[1] جامعة يحيى فارس بالمدية (الجزائر)، azaoui6@gmail.com
[2] جامعة يحيى فارس بالمدية (الجزائر)، rachidmiad@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2021/10/10 تاريخ القبول: 2022/03./.17 تاريخ النشر: 2022/05/01

ملخص:

يعتبر منهج الشيخ مبارك الميلي في كتابة تاريخ الجزائر من أبرز مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في الفترة المعاصرة والذي كان له الفضل في تدوين تاريخ الجزائر عبر العصور، وأصبح بذلك أحد رموز المدرسة التاريخية الجزائرية الحديثة رغم وجود كوكبة من المؤرخين الذين تخصصوا في هذا النوع من الكتابة, ، وكان إسهامه كبيرا في بعث كتابة تاريخ الجزائر من خلال مُؤَلَّفِهِ "تاريخ الجزائر في القديم و الحديث" الذي ساهم في إرساء أسس المدرسة الجزائرية الحديثة مع بداية القرن الماضي .وسنحاول من خلال هذه الدراسة التطرق إلى سيرة الشيخ مبارك الميلي "المؤرخ" ،ومنهجه في التصدي للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في تاريخ الجزائر وقامت بتزويره, والصعوبات التي واجهها في سبيل ذلك، حيث لبس الميلي شخصية "الرجل المصلح" وانبرى في التصدي للكثير من البدع و الخرافات التي عرفتها الجزائر وقت ذاك، كما سنقوم بعرض أهم الموقف والآراء المختلفة عن شخصيته ومنهجه في الكتابة التاريخية من الذين عاصروه ومن الذين درسوا منهجه في التأريخ من بعد.

الكلمات المفتاحية: مبارك الميلي، ، المدرسة التاريخية الجزائرية , كتابة تاريخ الجزائر ، منهج الكتابة التاريخية، تاريخ الجزائر في القديم والحديث, الكتابة التاريخية, الهوية الجزائرية.

Abstract :

The approach of Sheikh Mubarak Al-Mili in writing the history of Algeria is considered one of the most prominent methods of historical writing by Algerian historians in the contemporary period, which was credited with codifying the history of Algeria through the ages, and thus became one of the symbols of the modern Algerian historical school despite the presence of a constellation of historians who specialized in this type of Writing, furthermore His great contribution was in reviving the writing of the algeriqn history through his own book namely "The History of Algeria in the Old and the Modern", which contributed in laying a foundations of the modern Algerian school at the beginning of the last century.

we will try, through this study, to address the biography of Sheikh Mubarak Al-Mili, the “historian”, and his approach in confronting the French colonial school that questioned the history of Algeria and forged it, as well as the difficulties he faced in doing so. also the myths that Algeria knew at that time, and we will also present the most important position and different opinions about his personality and his method in historical writing from those who contemporaneously and those who studied his method in history from afar.

Keywords : Mubarak Al-Mili; Algerian historians ; Algerian school of history; Algerian personality ;the writing historical

* المؤلف المرسل

توطئة (مقدّمة):

إن الحديث عن كتابة تاريخ الجزائر هو حديث عن ذاكرة وطن ضارب بجذوره في عمق التاريخ، ووصْلٌ بين حلقات الأجيال المتعاقبة، وفي نفس الوقت هو رد فعل وتصدي للمشروع الثقافي الاستعماري الذي حاول نفي

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

وطمس هذه الأمة من خلال كتابات المدرسة الاستعمارية الكولونيالية، وتشويه تاريخها وتوجيهه لخدمة الاستعمار حاضرا ومستقبلا، مع بداية القرن العشرين شهدت الجزائر تحولات حاسمة كان لها انعكاس بارز على الحياة الفكرية والأدبية, أوجدت مناخا جديدا للكتابة التاريخية حيث تولى مهمة تدوين تاريخ الجزائر نخبة من المثقفين، والذين كان لهم قدم السبق في حفظ التراث ورعاية تاريخنا وقد تحملوا في سبيل كتابته الكثير, ومن جملة هؤلاء الشيخ المؤرخ مبارك الميلي، الذي يعد من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية, والذين أسهموا في التصدي للمشروع الاستعماري من خلال "كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث" حيث سنتطرق في هذه الدراسة إلى سيرة الشيخ مبارك الميلي المؤرخ، الذي تصدى بعلمه وفكره للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في تاريخ الجزائر وعملت على تزويره، كما سنتعرض لحياته التي تميزت بالكفاح الطويل في سبيل بعث وتحصين مقومات الشخصية الجزائرية ومنهجه في كتابة التاريخ والصعوبات التي واجهته.

1. دوافع ومميزات الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر:

انطلق الفرنسيون في كتاباتهم عن تاريخ الجزائر من عدة معطيات لا تزال إلى اليوم تتحكم في كتابات المدرسة الكولونيالية الفرنسية (أبوالقاسم، 2009: 17-18) أهمها:

- دخولهم أرض الجزائر بالقوة، بدافع السيطرة والاحتلال، ومحاولتهم تبرير ذلك، فكانت بدايتهم بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتدقيقها وقد استعان الفرنسيون بالعديد من الكتاب الجزائريين مثل ما كتبه محمد بن علي التلمساني عن علماء وهران وتلمسان، وما كتبه العنتري وابن مبارك عن تاريخ قسنطينة.
- باعتبارهم شعب متحضر جاء لنشر الحضارة، والحقيقة أنها حملت معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري، فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة وكذا بالمترجمين وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الإسلام وتاريخه.
- الدافع الديني الذي يعتبر كذلك أحد أبرز منطلقات الكتابة، فبما أنهم مسيحيين فقد فرضوا سيطرتهم على شعب مسلم، وبالتالي يعتبر احتلال الجزائر في حد ذاته حلقة من حلقات الحروب الصليبية، لذلك اهتم الفرنسيون بتاريخ الجزائر لمعرفة أسرار وخبايا المراحل السابقة.
- الفضول العلمي وهو الرغبة في الاكتشاف ومعرفة المجهول، خاصة وأن هذه الفترة عرف فيه العقل الأوربي ميول إلى المعرفة والاكتشاف.

وعليه فالهدف الأساسي الذي كانت تهدف إليه الكتابات الفرنسية هو خدمة الاستعمار بالدرجة الأولى ومحاولة تبرير احتلال للجزائر، رغم تعدد وتنوع الاهتمامات واختلاف المستويات الثقافية لهؤلاء الكتاب، فمنهم من كان ينتسب إلى سلك القادة العسكريين، ومنهم من كان من العلماء المتخصصين وغيرهم.

كما كان للقادة العسكريين والحكام المدنيين قصب السبق في كتابة تاريخ الجزائر طيلة السنوات الخمسين الأولى من الاحتلال (1830-1880)، حيث تم نشر الكثير من المذكرات الشخصية والتقارير الرسمية، وتميزت الكتابات التاريخية الفرنسية في هذه الفترة بسيادة عنصر الهواية والخدمة العسكرية، كما كانت في شكل اكتشافات لبِنْية المجتمعات القبلية في الجزائر من خلال جمع الروايات الشفوية والتقارير الرسمية والمذكرات شخصية، غير أن انعدام التخصص لدى هؤلاء العسكريين، جعل مثل هذا الإنتاج اقرب إلى الثقافة العامة منه الى التأريخ، ومن ابرز من كتب في هذه الفترة نجد : شارل فيرو(Charles Féraud) وارنست مارسيي (ErnestMercier) و جورج فوازين (Georges Voisin المعروف باسم اسماعيل اوربان. (سعيدوني، 2000: 10)

أما عن أساتذة الجامعات وذوي الاختصاص في مجال الدراسات فقد واصلوا الكتابة والنشر طيلة السنوات الممتدة من (1880-1954)، خاصة بعد تأسيس جامعة الجزائر سنة 1909م ومعهد الدراسات الشرقية سنة 1933م، وتلاه إنشاء معهد الأبحاث الصحراوية سنة 1940م كما ساعدهم أكثر في الكتابة والنشر تأسيس العديد من المجلات التي تهتم بنشر الأبحاث والدراسات منها المجلة الإفريقية (Revue Africaine) سنة 1856م التي تصدر عن الجمعية التاريخية الجزائرية، والنشرية الأثرية لمقاطعة قسنطينة سنة 1852م التي تصدر عن جمعية قسنطينة الأثرية، ومن أشهر من الكتاب في هذه الفترة نذكر: ستيفان غزال (S.Gzell)، وغوتي(Gauthier)، واسكار(G.Esquer) واميري (M.Emerit)، وغيرهم (سعيدوني، 2000: 11).

إن هذين الفريقين من المؤرخين الفرنسيين سواء العسكريين أو المؤرخين المتخصصين قد تولوا جمعيا تزييف وتحريف تاريخ الجزائر، وفق أهداف ومنهج المدرسة التاريخية الاستعمارية، ومن أهم النقاط التي ارتكزت عليها هذه الكتابات:

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

- إبراز حضارة بلاد المغرب في ظل إمبراطورية روما، من خلال الإشادة بالأباطرة وعلاقتهم بالأهالي البربر، وتصويرهم على أنهم أحفاد الغاليين (بلاد الغال).
- التركيز على الروايات العربية الأسطورية التي تصور الفاتحين كسفاحين وناهبين لخيرات المجتمعات القبلية البربرية.
- إعطاء أمثلة سلبية عن بعض الهجرات والتهويل من دورها، مثل الهجرة الهلالية التي ادعت بأنها أسهمت في تخريب بلاد المغرب (علاوة، 2008: 94).

وأول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية نذكر ارنست مرسيي(Ernest Mercier) في كتابه الأول الذي صدر سنة 1875م تحت عنوان: "تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية"، ثم كتابه الثاني الذي طبع سنة 1888م بعنوان: "تاريخ إفريقيا الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الإسلامي" (علاوة، 2008) ، بالإضافة إلى ما ذكره ستيفان غزال (S.Gzell)، في تقديمه لكتاب: "تاريخ ومؤرخو الجزائر" بقوله: (إن هذه الأخيرة أي الجزائر هي جزء اقتطع تعسفا من إفريقيا الشمالية في العهد التركي، حيث عرف حدوده الحالية تقريبا، انها وحدة مزيفة، جعلت منها فرنسا قدر المستطاع وحدة حقيقية...) (أحمد، 2013: 325)، هذه هي النظرة السائدة لدى المدرسة التاريخية الفرنسية، نظرة عداء للعرب بصفة عامة و الجزائر بصفة خاصة, والتي نجدها في جل الدراسات الفرنسية حول تاريخ الجزائر.

2. المساهمة الجزائرية في كتابة تاريخ الجزائر:

مع بداية القرن العشرين حدثت عدة تحولات حاسمة في الجزائر و خارجها، أوجدت مناخا جديدا أسهم في بروز بعض الكتابات التاريخية الجزائرية التي جاءت كرد فعل على الكتابات الفرنسية، فأسهمت في التصدي لهذا للمشروع الاستعماري، الرامي إلى طمس هوية وتاريخ هذا البلد (سعيدوني، 2000: 13_14) ، والتي يمكن تمييزها إلى مرحلتين أساسيتين هما:

المرحلة الأولى: كانت خلال العقد الأول من القرن العشرين، والتي غلبت عليها حركة إحياء التراث ونشر المصادر التاريخية الجزائرية، من تأليف وتراجم، ومن ابرز رواد هذه المرحلة نذكر محمد بن ابي شنب (1869-1929)، الذي نشر العديد من كتب التراث الجزائري مثل: "عنوان الدراية" للغبريني سنة 1910م، و"نزهة الأنظار" للورتلاني سنة 1908م، و"نحلة اللبيب" لابن عمار 1902م وغيرها، بالإضافة إلى أبي القاسم الحفناوي (1850-1942م) الذي اصدر معجم "أعلام الجزائر" سنة 1906م يحمل عنوان: "تعريف الخلف برجال السلف"، والذي يعد موسوعة للأعلام الجزائرية التي ساهمت في بعث تاريخ الجزائر الثقافي.

المرحلة الثانية: تبدأ من نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، والتي توجهت نحو معالجة تاريخ الجزائر باعتباره وحدة من حيث المدى الزماني والحيز الجغرافي، واحياء ونشر تاريخ هذا البلد، ونشر الثقافة الصحيحة عن تاريخ شعوب المنطقة، ومن ثمة تكذيب فكرة انتساب الجزائر لبلاد الغال، ويمثل هذه المرحلة كل من توفيق المدني الذي ألف كتاب "تاريخ الجزائر" سنة 1932م، وكتاب محمد عثمان باشا سنة 1938م، عبد الرحمان الجيلالي: "كتاب تاريخ الجزائر العام" سنة 1953م والمؤرخ الشيخ محمد مبارك الميلي الهلالي الذي ألف كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" في جزئه الأول سنة 1928م (أحمد، 2013: 325).

هذه الشخصية الأخيرة لعبت دوار بارزا في إرساء ووضع أسس المدرسة التاريخية الجزائرية خاصة وأنه رجل من رجال الإصلاح باعتباره من المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، بالإضافة إلى ما قدمه في سبيل تحرير الإسلام من الخرافات والبدع، وما عرف عنه من غيرته على دينه ووطنه. وبالتالي فالشيخ مبارك الميلي صاحب المؤلَّف السابق هو أحد رواد المدرسة التاريخية الجزائرية ، فقد اتخذ منحى يختلف عن سابقيه، تمثل في كتابة تاريخ وطني تتمازج فيه الأحداث مع المشاعر الوطنية ، وقد تزامن تأليف الشيخ كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث في جزئه الأول مع التحضيرات الفرنسية للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، التي كانت تهدف إلى إرساء قناعة قويّة لدى العامة بأن الجزائر صارت - وإلى غير رجعة - قطعة من ممتلكات فرنسا وامتداداً طبيعيا لنفوذه وسلطانه.

بالمقابل فقد عرفت الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حركة علمية قام بها جملةٌ من العلماء المصلحين من أمثال المجاوي وبن سماية وبن الموهوب وحمدان الونيسي وغيرهم، الذين كان لهم دور كبير في ظهور وانتشار الوعي الوطني, والذي تبلور بصورة جلية في الربع الأول من القرن العشرين، فقد ظهر جيل جديد من الجزائريين من أبناء جيل النهضة من أمثال ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، هذا بالإضافة إلى جهود المقاومة السلمية المتمثلة في حركة الأمير خالد بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918م). في ظل هذه الظروف ألف مبارك الميلي كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث عندما كان يقيم بالأغواط، حيث صدر الجزء الأول منه في قسنطينة سنة 1928م، فيما صدر الجزء الثاني سنة 1932م.

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

3. **مولد الشيخ الميلي ونشأته:**

هو الشيخ مبارك بن محمد بن رابح بن علي إبراهيمي لقبه ولقب أسرته براهيمي ملقب بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية بشرق الجزائر التي ولد بها سنة 1898م، حسب ما ذكره ابنه محمد الميلي (دبوز، 1974: 31)، من عائلةٍ ذات غنًى ووجاهة، كفله جدّه وجدّته بعد وفاة والده منذ سن الرابعة، ووَجد في كفالة جدَّيه الحنان والتربية الحسنة (دبوز، 1974: 32).

بدأ تعليمه بدوار أولاد مبارك بمدينة الميلية، عكف منذ صغره - كغيره من الكثير من أبناء الجزائر في ذلك الوقت - على حفظ القرآن الكريم، حيث أتم حفظه على يد الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود في جامع الشيخ عزوز بمسقط رأسه، في الحادية عشرة من عمره (سعدالله، 1998) ، ورغم رفضِ عمِّه - الذي تولى كفالته بعد وفاة جده - تفرغه لطلب العلم، وإلزامه الالتحاق بالفلاحة والرعي، إلاّ أنه صمَّم على استكمال طريق العلم، حيث التحق بمدرسة الشيخ محمد بن معنصر الشهير بالميلي ببلدة ميلة، لمواصلة مسيرة طلب العلم، ومكث هناك نحو أربع سنوات، حيثُ بدأت شخصيته العلمية تتشكل، قبل أن يتجه إلى مدينة قسنطينة، لينضم إلى دروس الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله بالجامع الأخضر، ويُصبح من بين أكبر تلاميذه وأكثرهم انتفاعًا بعلمه، فقد كان الجامع الأخضر محطة هامَّة في حياة الميلي وأترابه من طلاب العلم, ومن هناك تم إرساله ضمن الطلبة المتفوقين إلى جامع الزيتونة بتونس، فأخذ العلم على يد أبرز علمائها الذين كان لهم الأثرُ البالغ في تكوينه العِلمي، ومنهم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي، والشيخ البشير صفير، والصادق النيفر، وغيرهم. (باديس، 1982: 474_475)

عُرف الميلي بسلوكه العلمي الرّزين في جامعة الزيتونة، وهو ما جعله محل تقدير من طرف شيوخه وزملائه على السواء، وقضى فيها نحو أكثر من أربع سنوات من الجد والاجتهاد تكللت بنيل شهادة العالمية سنة 1924م التي كانت تسمَّى "شهادة التطويع" (حماني، 1984: 14).وبعد عودته إلى الجزائر انخرط الشيخ مباشرة في العمل الإصلاحي, إلى جانب إخوانه من العلماء المصلحين، كان قد استقر الشيخ للتعليم في مدينة قسنطينة، يدرس العِلم بالمدرسة الباديسية حتى 1927م، ثم دَعاه سكان مدينة الاغواط بالجنوب الجزائري للتعليم ففتح هناك مدرسة جديدة عَرفت إقبالا كبيرا ونشاطًا متناميًا، حتى أصبحَت حديثَ العام و الخاص، وهو ما أثار تخوُف سلطات الاحتلال الفرنسي من آثارها على الشباب خاصة والشعب عمومًا ،فمنَعَته من الاستمرار في التعلم، وأمَرَته بمغادرة المدينة بعد سنوات من النشاط فيها. (سعدالله، 1998: 412)

وهو نفس المصير الذي لقيه مِن إدارة الاحتلال الفرنسية في مدينة بوسعادة، التي طردَته منها أيضا، ليعود بعدها إلى مدينة الميلية من جديد ويؤسس فيها مسجدًا للصلاة بمعية أعيان المدينة، بعد أن أهدى أحدُهم أرضَه لعلماء الإصلاح والمناصرين له. فكان يدرس ويخطب فيه، ثم أسس هؤلاء بقيادة الميلي جمعية النادي الإسلامي، التي شكلت إزعاج كبير لسلطات الاحتلال وعُملاءه من الطرقيين وأعداء الإصلاح، خاصة بعدما توسع نشاطها، مما أدى ببعض التقارير الفرنسية بالإقرار بأن الشيخ يقدم تعليما حيا وواسعا (سعدالله، 1998: 413) وهو الأمر الذي جلب له سخط إدارة الاحتلال مرة أخرى، كغيره من دعاة الإصلاح.

إضافة إلى ذلك كان الشيخ مبارك الميلي من بين مؤسِّسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد أعضاء مجلسها الإداري فقد عُين أمينًا للمال، وانخرط في النشاط الإصلاحي عبر كلّ منابره، فقد كان إماما خطيبا ومعلما متفانيا وصحفيّا ومؤرخا وكاتبا واداريا مخلصا، ولمّا توفي رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في منفاه في آفلو جنوب غرب الجزائر، حيث انتخب - وهو في منفاه- رئيساً جديداً لهم، فاضطلع الميلي مع بقية العلماء ورجال الجمعية بمهامها والقيام بأعمالها إلى أن عاد رئيسُها المنفي إلى أعماله فكان خيرَ عون له عليها، كيف لا وقد وصف الإبراهيمي مكانته وسيرته بقوله: "وانّ لأخينا مبارك الميلي على جمعية العلماء حقوقاً فقد كان مرجعها يوم تحلو لك المشكلات، وتضل الآراء، فيشرق عليها بال أري كأنه فلق الصبح وقد كان معقلها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام تزلّ، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترئ عنها مجترئ، ولا يفتري عليها مفترٍ، إلا رمته منه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه" (الإبراهيمي، 1997: 575).

ظل الشيخ يتحدى ويقاوم المرض الذي أعياه وهو في قمة عطائه العلمي ونشاطه الإصلاحي محاولا القيام ولو بأدنى الأعمال التعليمية الإصلاحية، حيث يذكر الشيخ احمد حماني انه شاهده منهكا يوم قبل وفاته بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، قبل أن يطلب نقله إلى الميلية حيث توفى بها في التاسع من فيفري 1945م. (حماني، 1984: 17-18)، وكان لوفاته صدى في الجزائر وخارجها، وقد رَثاه الكثير من الشعراء والكتاب.

4. **تأليفه لكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث":**

خلال فترة استقرار الميلي بمدينة الاغواط (1927-1933م)، ألّف كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، غير أن بدايات تحضير الكتاب سبقت إقامته بالأغواط، صدر الجزء الأول من كتابه بقسنطينة سنة 1928م، فيما صدر الجزء الثاني سنة 1932م، وقد اعترف الميلي بالصعوبات التي لازمته طوال فترة إعداده للكتاب أبرزها:

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

- تعدد نشاطات الشيخ بين العمل الدعوي والتعليمي والكتابة في الصحافة والإشراف على جريدة البصائر، بالإضافة إلى مسؤوليته كأمين مال لجمعية العلماء المسلمين، وقد أشار لذلك بنفسه في قوله: (وقد قاسيت في تصحيح الأعلام وجمع المواد وايضاح الأعراض التاريخية وتقريب الأسلوب من المنهج العصري ما لا يعلمه إلا من عملي.) (الميلي، /: 13).
- التضييق الذي كان يتعرض له دعاة الإصلاح من طرف السلطات الاستعمارية ومنهم الشيخ الميلي في محاولة لخنق صوته وهو ما حدث له في مسقط رأسه بالميلية وفي الاغواط وبوسعادة، كما أن تأليفه لكتاب رسالة الشرك ومظاهره الذي قوبل برفض شديد من قِبَل الكثيرين من شيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم، خاصة الطريقتين التيجانيّة والعلويّة، هذه الأخيرة التي تهجمت على الكتاب ومؤلفه بصفة خاصة وجمعية العلماء ودعاة الإصلاح بصفة عامة، حيث نُشِرَت رسالةٌ لأحد أتباع الطريقة في صحيفة "لسان الدين" والتي جاء فيها: (..لقد اطلعت على الكتاب المسمّى بالشرك ومظاهره لمؤلفه الشيخ مبارك الميلي، ولقد عرَّفتني صورةُ ذلك الكتاب ما تقاسيه الأمة الجزائرية من المحن والبلايا من جماعة الإصلاح... وقد حوى الكتابُ جملةً من التمويهات والأضاليل وفساد العقائد، وبالجملة فقد دَسَّ الشيخُ مبارك الميلي في هذا الكتاب ما لم يَدُسُّه إبليسُ في ثلاثة عشر قرناً). (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، .., 142)
- عدم تمكنه من اللغة بالفرنسية جلب له صعوبات جمة في مجال ترجمة بعض ما كتب بالفرنسية حول تاريخ الجزائر، ولذلك فقد استعان بأصدقائه ممن كانوا يحسنون الفرنسية، وهو ما يؤكده توفيق المدني بقوله : "وكان رحمه الله في هذه الأثناء(1931م) ينهمك في انجاز مآثره الخالدة (تاريخ الجزائر في القديم والحديث)، وقد جمع له أهم المصادر العربية ، فتعهدت له بأن اجمع له أهم المصادر الفرنسية، وأن أقدم له مترجما إلى العربية ما يهمه من ذلك، وانكب كل منا على عمله، منقطعا له انقطاع الناسكين، واذ تم تعريب أهم الأبواب، واغلب الفصول من مختلف الكتب التاريخية الفرنسية، قدم العاصمة رحمه الله خصيصا من اجل ذلك). (المدني، 1948م).
- قلة المادة التاريخية المكتوبة بالعربية والتي تناولتها الأقلام الفرنسية(المترجمون والعسكريون) والتي كان القصد منها تشويه وتزوير تاريخ الجزائر وتبرير وجودهم في هذه الأرض.
- أوضاعه الصحية الصعبة التي أثرت على نشاطه العلمي حيث وافته المنية قبل أن يكمل الجزء الأخير من كتابه.

5. **منهجه في الكتابة التاريخية:**

قبل الحديث عن منهج الشيخ في كتابة التاريخ ينبغي الإشارة إلى أن عصر الميلي افتقد لمدارس التاريخ وبالتالي ابتعاده من المنهج الأكاديمي، غير أن هذا لا يعني أن الكتابة التاريخية عند الرجل تخلوا تماما من المنهجية، إذ يمكننا التنويه ببعض النقاط المنهجية الواردة في مؤلفه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" (أحمد، 2013: 330) :

_ من خلال عنوان الكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث نجد انه جمع واعتمد قاعدة الكل فالجزء أو ما يعرف بالتاريخ العام وهو نفس المنهج الذي اعتمدته العديد من المدارس الأكاديمية التاريخية في العالم مثل الاتحاد السوفياتي سابقا على يد بتروفسكي، والولايات الأمريكية المتحدة على يد شارل بيرد اوستن.

_ اعتماده أسلوب الاستقراء نظرا لزخم الأحداث واختلاف طبيعتها وبعدها الزمني من خلال التحري والتمحيص، وهو ما يؤكده توفيق المدني بقوله: (...وقضينا عشرين يوما في عمل مستمر، لا ينقطع إلا الفترات القصيرة، ونحن نقابل بين نص ونص، ونحكم مختلف الكتب فيما يتراءى لنا من تناقض أو اختلاف بين مؤرخي الشرق ومؤرخي الغرب، وننهمك في عمليات حسابية طويلة، كي ندقق تاريخا أو نوفق في شأن الحادثة الواحدة ،بين ما يرويه هذا ويقصه ذلك) (المدني، 1948)

_ التحكم الجيد في البناء الزمني حيث اتصف الكتاب بتسلسل الأحداث ومحاولة الربط بينها وهو واضح من خلال أبواب وفصول الكتاب.

_ الابتعاد عن الأحكام المطلقة في تناوله لنتائج الأحداث حيث اكتفى بالإدلاء ببعض الآراء بعيدا عن روح النقد، لكن هذا لم يمنعه من توجيه اتهامات لمعاصريه من المؤرخين عندما يتهمهم بتحريف الحقائق التاريخية بسبب تعصبهم العرقي والوطني وحب التفوق واستعباد الغير وجهلهم بالمصادر التاريخية الصحيحة. (علاوة، 2008: 100)

6. **أهداف الكتابة التاريخية عند الميلي:**

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

تطرق الميلي في مقدمته لعلم التاريخ و نظرته له، فقد اعتبره مرآة الغابر و مرقاة الحاضر فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها، ويضيف انه الوسيلة الممكنة لإدراك الماضي الشريف بعيدا عن عبث المدلسين ، وعليه يمكن استخلاص مجموعة من الأهداف التي حرص الميلي على تحقيقها من وراء الكتابة التاريخية يشترك فيها مع العديد ممن كتب في تلك الفترة التاريخية، وهي الحقيقة صفات ميزت الكتابات الجزائرية منها :

- أنها كانت تهدف إلى تحريك الهمم وبعث الشعور الوطني في نفوس الناشئة وابطال أسطورة الجزائر الفرنسية.
- استعمال الكتابة التاريخية لمحاربة النظام السياسي الاستعماري وتنمية الشعور بالقضية الوطنية والأمة الجزائرية.
- محاربة ظاهرة النسيان بتجديد الذاكرة الجزائرية.
- تحسيس الجزائريين بدور وأهمية الكتابة التاريخية والتصدي للمدرسة الفرنسية الكولونيالية التي شككت في التاريخ الجزائري.

7. - **شهادات حول الكاتب وكتابه**:

قوبل مؤلف الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث بفخر واعتزاز من رواد الحركة الإصلاحية وأهم هذه الشهادات، شهادة ابن باديس رحمه الله بعدما اطلع على الجزء الأول من كتابه تاريخ الجزائر، وقد أبدى سروره به، فأرسل إلى الشيخ مبارك الميلي يهنئه قائلا:(...وقفت على الجزء الأول من كتابك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت لو سميته حياة الجزائر ، لكان بذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة سوية تامة، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك ...إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جمعيا، فكيف بمن أحيا أمة كاملة، أحيا ماضيها و حاضرها... فليس -والله- كفاء عمله أن تشكره الأفراد، ولكن كفاء هان تشكره الأجيال ...) (الميلي، /: 7-9)وقد أبدى الأمير شكيب ارسلان إعجابه بكتاب الشيخ، فقال في رسالة إلى الشيخ الطيب العقبي (... وأما تاريخ الجزائر فو الله ما كنت أظن أن في الجزائر من يفري مثل هذا الفري..).

كما أن صدور الكتاب كان له صدى واسع في الصحافة التونسية، حيث رأت فيه بادرة تحول في خطة رجال الجمعية ، واعتبرته من المؤلفات الجليلة التي جاءت في زمانها، لا لتسد النقص الذي تشكو منه المكتبة الجزائرية فحسب، وانما اعتبرته ضربا من ضروب المقاومة، وتصويبا للأخطاء والمغالطات التي دستها الكتابات الأجنبية في شكل خطة مبيته لتشويه تاريخ الجزائر واعتبرت الصحافة التونسية صدور الكتاب بداية نهضة حقيقية قائلة: (نهضت الجزائر نهضة مباركة منذ سنوات قليلة، وشعرت بأن الخطوة الأولى في سبيل النهوض لابد أن تعتمد على الأدب الذي هو قوام الروح وغذاء الفكر والدافع الأقوى إلى المشي نحو الأمام). (الجابري: 21)

وقال عنه الأستاذ احمد توفيق المدني "...وأقسم إنني ما عملت مع احد عملاً أحب إليّ، وأمتع لنفسي -إذا استثنيت سني الجهاد ضمن الحزب الدستوري التونسي– من عملي ذلك، خلال تلك الفترة القصيرة، إلى جانب مبارك الميلي، ولقد أريت فيه يومئذ خلالا جعلته في نظري أنموذج المؤرخ الصادق، وهذه شهادة أؤديها للمعاصرين وللأجيال: الصبر على البحث، وغلوا في التحقيق والتدقيق، ومهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص ونظرة صائبة في استجلاء الغوامض، وحكم صادق في أسباب الحوادث ونتائجها، ومهارة في الترتيب والتبويب، وحسن سباك يجعل التاريخ كله كالسلسلة المفرغة ... فمبارك الميلي سلك في تدوين تاريخه مسلك التحليل العصري، فلم يكن يكتفي باستجلاء الحقائق، واثباتها مجردة ، بل كان يمعن النظر في الأسباب والنتائج، ويثبت أحكاما هي عصارة فكره، وخلاصة رأيه ونتيجة بحثه واستقرائه... فتاريخ الجزائر في القديم والحديث لم يكن من تلك الكتب الجافة الجامدة، المملة المضنية، بل كان إلى جانب التحقيق التاريخي كتابا طريفا حيا، تتراءي لك فيه شخصية مؤلفة العظيمة، فإذا بها شخصية هائلة جسيمة، هي شخصية الوطني الصادق، شخصية المسلم الصحيح، شخصية العربي المتفاني في سبيل عروبته، شخصية الرجل المثالي الذي يدأب سعيّا لإدراك غايته، والبلوغ بأمته، إلى ذروة المجد والعزة والكرامة". (المدني، 1948)

وقال عنه أمير البيان الشيخ البشير الإبراهيمي "... حياة كلها جِدّ وعمل، وحَيٌّ كله فكر وعلم، وعمره كله درس وتحصيل، وشابّ كله تلقّ واستفادة، وكهولة كلها إنتاج وافادة، ونَفْس كلها ضمير وواجب، وروح كلها ذكاء وعقل، وعقل كله رأي وبصيرة، وبصيرة كلها نور واشراق، ومجموعة خلال سديدة وأعمال مفيدة، قلَّ أن اجتمعت في رجل من رجال النهضة، فإذا اجتمعت هيَّأت لصاحبها مكانه في قيادة الجيل، ومهدت له مقرعة في زعامة النهضة ..ذلكم مبارك الميلي الذي فقدته الجزائر ، وفقدته المحافل الإصلاحيّة، ففقدت مؤرخها الحريص على تجلية تاريخها المغمور، وانارة جوانبه المظلمة، ووصل عراه المنفصمة ..." (الإبراهيمي، 1997: 183)

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014

واختم بما قاله الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله في حديثه عن دوافع كتابة مبارك الميلي في قوله: "... ومن يقرأ مقدمات كتابه، سيجده مركزا كثيرا على ذلك الدافع، ونعني به الجهل بالتاريخ الوطني، مضافا إليه التنكر له أيضا والقدح فيه، وفي اعتقادنا أن الميلي كتب تاريخا هو في الواقع درس في السياسة والوطنية وجزء من مهمته كمرشد وواعظ ومدرس في مدرسة الإصلاح، ويبدوا لنا ان الذين تلقوا عليه دروس العامة كانوا أيضا يتلقون عليه دروس الوطنية، لان أفكاره في دروسه هي أفكاره في كتابه." (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998: 305-306)

الخاتمة:

في الأخير نستطيع القول أن الشيخ الميلي دخل الكتابة التاريخية بتأليفه كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث من زاوية الهواية التاريخية، إلا انه أدى الهدف الذي رسمه وهو خدمة الوطن واللغة العربية ،فكان تأليفه وسيلة من وسائل النضال الوطني دافع من خلاله عن شعب سلبت أرضه، وفي نفس الوقت رافع عن الوطن في قضايا ماضيه وحقائقه ومصيره، وكشف عمليا الاحتيال الكولونيالي وادعاءاته وأكاذيبه، وهو أيضا دعوة للأمم والشعوب، للشهادة على كيفية استغلال فرنسا بكتابها ومؤرخيها وعسكريها، مستغلين ضعف الجزائريين وجهلهم، لاستعبادهم وامتهان كرامتهم وطمس ماضيهم، واستكمال مهمة الإبادة الجماعية بالتصفية الجسدية، والتطهير العرقي التي قادتها آلة القتل الفرنسية من جهة، والإبادة الحضارية الدينية واللغوية من جهة أخرى عبر تشويه الحقائق واختراع تاريخ بديل للجزائر والجزائريين، فكان كتاب الشيخ بمثابة وثيقةَ الحجة على كل ذلك.

المصادر والمراجع:

- الإبراهيمي ,أ .(1997) .آثار البشير الابراهيمي .ط01.ج02 .بيروت :دار الغرب الاسلامي.
- الإبراهيهي ,أ .(1997) .آثار البشير الإبراهيمي .ط01. ج03 .بيروت :دار الغرب الإسلامي.
- أبوالقاسم ,س .ا .(2009) .أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر .ج01 .الجزائر :دار المعرفة للنشر والتوزيع.
- أحمد ,م .(2013) .دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر, ط01 ,ج01 .الجزائر :مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
- باديس ,ع .ب .(1982) .مجالس التذكير من كلام الخبير. ط01 .قسنطينة :دار البعث للطباعة والنشر.
- الجابري ,م .( ) .المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية .مجلة الثقافة.21 ,(102).
- حماني ,أ .(1984) .صراع بين السنة والبدعة ج02 .قسنطينة :دار البعث.
- دبوز ,م .(1974) .أعلام الإصلاح في الجزائر 1975-1921.ط01, ج03 .قسنطينة :مطبعة البعث.
- سعدالله ,أ .(1998) .تاريخ الجزائر الثقافي ط01، ج07 .بيروت :دار الغرب الاسلامي.
- سعيدوني ,ن .(2000) .ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني. ط01 . بيروت :دار الغرب الإسلامي.
- علاوة ,ع ,2008) .ديسمبر .الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر .مجلة المواقف.94 ,(03)
- المدني ,أ .(1948) .مبارك الميلي مؤرخ الجزائر .البصائر.
- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر . .(.) .1954مجلة الرؤية ,(02) .142.
- الميلي ,م .تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج01 .بيروت :دار الغرب الإسلامي.

P-ISSN: 2437-0436 / E-ISSN: 2602-7720/ Legal Deposit N°4343-2014